



في كتابه "البحر المتوسط وعالم البحر المتوسط على عهد فيليب الثاني" يدلل المؤرخ الفرنسي العظيم فرناند بروديل (1902-1985) على أن المجتمعات المقيمة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط من الشمال والشرق والجنوب تنتهي إلى حضارة واحدة في عمقها، رغم تباين العوالم الدينية والعرقية والسياسية التي تنتهي إليها تلك المجتمعات. ويمكن توسيع نظرية بروديل بالقول إن عالم المتوسط -بمنطق الجغرافيا السياسية- مجال سياسي وإستراتيجي واحد أيضا.

وولد الربيع العربي منذ البدء ظاهرة متوسطية، فأربع من دول هذا الربيع -تونس وليبيا ومصر وسوريا- تقع على ضفة المتوسط، كما أن المغرب التي وصلتها بشائر الربيع في بداياته، ثم احتوت خطر الثورة بخطوات استباقية من الإصلاح الوقائي دوله متوسطية، ولم تخرج عن هذه الظاهرة المتوسطية من دول الربيع العربي سوى اليمن المعروف -من بين دول الجزيرة العربية- بتفاعل أهله مع ما يجري من تحولات سياسية في مصر.

بيد أن النخبة السياسية الأوروبية لم تتصرف طبقاً لهذه المعادلة الجيوسياسية خلال الأعوام الماضية، فلم تتعامل مع الربيع العربي بمنطق إنساني متفهم يساند حقوق الشعوب في الحرية والكرامة، ولا بمنطق سياسي وإستراتيجي حكيم يدرك وحدة عالم المتوسط، ويسعى لتوقي التياران التي شبت في بيوت الجيران.

لقد تعاملت النخبة الأوروبية مع الربيع العربي -تقليداً للأميركيين والروس والإيرانيين- بمنطق استعماري بغيض، يحرض على إبقاء الشعوب العربية في نير العبودية بأي ثمن، وتحكمت في الأوروبيين عقلية الاستعمار السياسي بعد رحيل الاستعمار العسكري عن المنطقة، إذ وجد المستعمرون السابقون أن التحكم في الشعوب العربية من خلال حكام مستبدین قاهرين لشعوبهم، مفهورين أمام الخارج، هو السبيل إلى صيانة المواريث الاستعمارية.

وقد جاءت هجمات باريس الدامية تذكيراً للجيран على الضفة الشمالية بأمريرين على قدر كبير من الأهمية:

أولهما أن عصر الفصل بين ضفتي المتوسط قد انتهى، فإما أن يعيش أهل الضفتين معاً بحرية وكرامة، وإما أن يغرقوا معاً في بحر من الدماء.

وثانيهما: أن عصر الاستعمار السياسي قد ولّ، وأن سياسات الغرب القائمة على حماية المستبددين ووأد ثورات الشعوب سياسة خرقاء.

ومن قبل هجمات باريس كانت موجات اللاجئين تكفي لذكر الأوربيين بهاتين الحقيقةين، لكن الأوربيين استأسروا -فيما يبدو- للمنطق الأميركي الإسرائيلي، ولم يصوغوا رؤيتهم الخاصة للأحداث التاريخية الجارية على الضفة الجنوبية.

ويتأسس المنطق الأميركي الإسرائيلي على أن المنطقة العربية فيها فائض من البشر، وفائض من الدين، وفائض من المال، وأنه يجب استنزافها داخلياً، قبل أن يتحول فائضها البشري والديني والمالي إلى طاقة بناءة تخرجها من الوصاية والتبعية، وتنقلها إلى الاستقلال السياسي والإلقاء الحضاري، وأحسن طريقة للاستنزاف -بهذا المنظور- هي تحويل ثورات الشعوب العربية إلى مصهرة دموية، ومنبحة مفتوحة لا غالب فيها ولا مغلوب.

لكن الأوربيين نسوا أنهم ينتمون إلى عالم المتوسط الذي تحدث عنه بروديل، وأن قدرهم الجغرافي يفرض عليهم اتباع سياسات أكثر حصافة، ونظراً إلى عواقب ما يفعله الأميركيون الذين يعيشون بعيداً عن المنطقة، بين محظيين، لكن المتابع للسلوك السياسي الأوروبي عموماً -والفرنسي منه خصوصاً- بعد هجمات باريس الدامية لا يمكن أن يتغافل كثيراً.

فخطاب هولاند بعد هجمات باريس يكاد يكون ترجمة فرنسية يشبه خطاب جورج بوش بعد هجمات 11 سبتمبر 2001؛ فقد تحدث هولاند عن استهداف تنظيم الدولة لفرنسا لأنها "دولة حرة"، وقال "إنهم لم يهاجمونا بسبب ما نفعله، بل بسبب من نحن".

وهذه ترجمة حرفية لمقوله سطحية قالها جورج بوش بعد هجمات 11 سبتمبر، كما ظهر من العنتريات في خطابات هولاند الأخيرة واستعراض القوة الجوية والبرية الفرنسية ما يذكر بقول رامسفيلد بعد هجمات 11 سبتمبر: "لا بد من تأديب العالم على هذه الهجمات"!!

وهكذا تبين أن القادة الأوروبيين ليسوا أفضل من القادة الأميركيين من حيث الخيال الإستراتيجي والحكمة السياسية.

ويبدو أن النخب السياسية الأوروبية لم تتعلم الكثير خلال الأعوام الـ14 الفاصلة بين هجمات 2001 وهجمات 2015، رغم أن المواريث الاستعمارية والقرب الجغرافي يؤهلان أوروبا لمعرفة المنطقة العربية بأحسن مما يعرفها الأميركيون، والتحرر من اجترار التفسيرات السطحية التي يطبعها التضليل والتطفيف.

فأوروبا وأميركا لا تتعانيان من "الجهل النزيه" بجذور هجمات باريس وجذور ظاهرة تنظيم الدولة، بل من "الجهل المتمم" المنبع من التشكيك بسياسات الاستعمار السياسي منذ نهاية الاستعمار العسكري للمنطقة العربية.

وقد بحثت تركيا من نداء الأوروبيين والأميركيين إلى التعاون لوقف المذبحة المفتوحة في سوريا، ولو بعمل رمزي بسيط، مثل إعلان منطقة آمنة بطول تسعين كيلومتراً وعمق خمسين كيلومتراً، وتزويد الثوار ببعض صواريخ مضادة للطيران تكون رادعاً لسفاح دمشق وبراميله المتفجرة التي تحصد أرواح العشرات من الأبرياء كل يوم.

وبدلاً من التعاطي الإيجابي مع هذه الدولة المسلمة القوية -التي انتدحها الغرب سداً منيعاً بينه وبين الزحف الشيوعي الأحمر خلال أكثر من نصف قرن- غدر الغربيون بتركيا وتركوها منكشفة أمام الحرب الطاحنة على حدودها الجنوبية في سوريا، وأمام الهمجية الإيرانية والروسية هناك.

كما نسي الأوروبيون أن لشعوب المنطقة معهم تاريخاً طويلاً من الاستعمار السياسي والعسكري لن تندمل جروحه بسهولة،

ولن ينمحى من الذاكرة بين عشية وضحاها.

يقول علماء النفس إن الضحية أقوى ذاكرة من الجلاد؛ والسبب أن الضحية تسعى إلى رفع الظلم ورد الاعتبار الإنساني لنفسها، أما الجلاد فيسعى إلى غسل ضميره الميت من ماضيه المُعْتَم لكي يسْوَغ لنفسه الاستمرار في الإجرام والإصرار على الظلم.

و واضح أن الفرنسيين نسوا أن المسار الذي اتبعته فرنسا لoward الديمقراطية في الجزائر في التسعينيات، و تحويل الديمقراطية الوليدة في الجزائر آنذاك إلى مذبحة مفتوحة، هو المسار ذاته الذي تتبعه أميركا وأوروبا اليوم في دول الربيع العربي.

و هل يخفى على عين البصير التواطؤ الأميركي مع السيسي و انقلابه الدموي، الذي اغتال حلم الشباب المصري، وقتل الآلاف في وضح النهار، ووضع عشرات الآلاف من أحرار مصر وأبرارها في غياب السجون؟!

و كل ذلك تقليد لجرائم فرنسا في التواطؤ مع الانقلاب الدموي في الجزائر منذ عقدين، وهو الانقلاب الذي انتهى بحرب أهلية دامت عشرة أعوام عجاف، و قُتُل فيها نحو ربع مليون جزائري، بتواطؤ بين فرنسا و جنرالات الجزائر الذين صنعتهم على عينها، وأرضعوهم بلبانها.

و كأن دماء المليون ونصف مليون شهيد الذين ارتفعوا إلى علّيin لتحقيق استقلال الجزائر عن فرنسا لا تكفي لإطفاء ظمأ فرنسا إلى الدم العربي المسلم.

لكن "البروفة" الفرنسية في الجزائر لا تصلح لثورات الربيع العربي، و عام 1988 ليس عام 2010 إلا في أذهان البلداء الذين اعتادوا استعباد الشعوب، و التحكم بمصالحها من وراء البحار، ولم يفهموا أن التاريخ دائم الحركة.

منذ أكثر من نصف قرن كتب المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون: "إن الغرب لم يَرَ في الشرق الإسلامي إلا ما كان يريد رؤيته". ويمكن القول - توليدا لمقوله رودنسون - إن الغرب لم يسمع من الشرق الإسلامي إلا ما كان يريد سماعه؛ فهو يريد أن يسمع من يُدين الذين يهاجمون الغرب دون أن يذكّر الغرب بأن سياساته العدوانية ودعمه الظاهر والمُضمر للمُستبدِّين السفاحين، و تواطؤه في قمع الشعوب العربية ومصادرة حرياتها، وoward آمالها الإنسانية المشروعة في الحرية والكرامة؛ هي الأسباب في كل ما يحique به وما سيعيق به من هجمات.

إن لكل نص سياقا يفسر مغزاه، وإن لكل فعل دافعا يعين على فهمه، والنخب الغربية ترفض أي حديث في السياقات والدوافع، لأن ذلك يكشف نفاقها وتواطؤها مع الظلم الفادح والهمجية المسلطة على الشعوب العربية. ويستلزم التعاطي الحكيم مع آثار هجمات باريس الدموية، واجتناب مزيد من هذه الفجائع، تأملا نزيها في الدافع والمعنى والسياق، لا سياق الهجمات فقط، بل سياق ميلاد تنظيم الدولة وتمدده وجاذبيته لآلاف الشباب المسلم، بمن فيهم مواطنون غربيون، كما يستلزم التعاطي الحكيم مع آثار هجمات باريس إدراكا لوحدة عالم المتوسط حاضرا ومستقبلا.

ومن الواضح أن الدافع وراء هجمات باريس الدامية - مثل الدافع وراء هجمات 11 سبتمبر - هو الإحساس بالظلم والسعى إلى الإنصاف، ومن الواضح أيضا أن التهرب من قدر الجغرافيا والتاريخ الذي ربط مصالح أوروبا بمصالح تركيا والعالم العربي لن يفيد الأوروبيين شيئا بعد اليوم.

أما تنظيم الدولة فهو ليس ثمرة من ثمار الثورات العربية، كما يحاول المستبدون الإيحاء بذلك، وإنما هو ثمرة من ثمار الثورة المضادة التي قادتها أنظمة عربية غبية، بمظلة سياسية غربية.

فالثورات العربية أخرجت إلى العالم ذلك الشباب الرائع الذي أذهل العالم بسلاميته ومثاليته وحسه المدنى في شارع بورقيبة بتونس، وميدان التحرير بالقاهرة، وفي شوارع صنعاء ودمشق، قبل أن تفتال الثورة المضادة آماله وتغرقه في دمائه.

وتنظيم الدولة ثمرة لمجية الثورة المضادة وتوطئ المال العربي، والنفاق الغربي، والغرور الإيراني، والعنجهية الروسية.. وكل إباء بالذى فيه ينضح.

وقد تعاملت الحكومات الغربية مع ظاهرة تنظيم الدولة بانتهازية مطلقة، فاعتبر الغربيون تنظيم الدولة ظاهرة محلية، مُعينة على استنزاف ثورات الشعوب وتلطيخ صورتها، وخلط أوراقها، لكن التنظيم تحول مؤخرا إلى ظاهرة عالمية، وتبيّن أن الانتهازية الغربية لها ثمنها الذي سيدفعه الغربيون عاجلاً أو آجلاً.

وقد عبر الخبير في شؤون الإرهاب بروس هوفمان في مؤسسة "رائد" الأمريكية عن الانتهازية الغربية في التعامل مع ظاهرة تنظيم الدولة فقال إن المراهنة على أن تنظيم الدولة ظاهرة محلية -يمكن حصرها ضمن حدود العراق وسوريا- كانت جزءاً من "التفكير الرغائي" السائد في الغرب (نيويورك تايمز 14/11/2015).

وفي تعبير "التفكير الرغائي" الذي استخدمه هوفمان هنا دلالة مهمة، فهو يدل على أن النخبة الأمريكية والأوروبية تحكمت فيها "الرغبة" في أن يظل تنظيم الدولة جزءاً من مصهرة داخلية، تستنزف الشعوب العربية وثوراتها، وسعيها إلى الحرية من الاستبداد السياسي، وإلى التحرر من الاستعمار السياسي، دون أي أثر سلبي على المتواطئين مع الاستبداد من وراء البحار، ثم أفاقت تلك النخبة فجأة على فيض الدماء وتناثر الأشلاء في عاصمة الأنوار الفرنسية.

لكن "صديقك من صدّقك، لا من صدّقك" كما يقول المثل العربي. والشعوب العربية تنادي الأوروبيين بلسان الحال والمقال: "أوقفوا ذبح الأبرياء على ضفتى المتوسط، سواء كانوا في حلب والرقة أو في باريس وبروكسل".

أما حكام القمع في الدول العربية فليسوا صديق صدق، ولذلك فهم يتباكون مع الأوروبيين على قتلهم، وهم فرحون بقتالهم في أعماق قلوبهم -لأنهم بالإرهاب يحكمون وعلى الإرهاب يتغذون- ثم يأخذون أجراً دموع النائحة المستأجرة: تواطئاً غربياً معهم في ظلم شعوبهم، وقتلوا للأحرار الأبرار من مواطئهم، بسلاح غربي، ودعم أمريكي، ومظلة سياسية غربية.

لقد آن الأوان ليفكر الأوروبيون في عالم المتوسط الواحد؛ فمصير أوروبا وقرارها أصبحا مرتبطين أكثر من أي وقت مضى بمصائر الشعوب العربية على الضفة الجنوبية والشرقية، كما أصبحا مرتبطين بمصائر الشعب التركي على الضفة الشمالية الشرقية منه.

فهل ستفهم النخبة الأوروبية أن الربيع العربي ظاهرة متوسطية قبل فوات الأوان؟ أم ستظل حكومة بالأنانية السياسية، والعقلية الاستعمارية، حتى تتحول عواصم الأنوار الأوروبية الأخرى إلى عواصم للشروع والدموع؟!